

## الإصلاحات الثقافية والعلمية لخير الدين التونسي في منتصف القرن 19م وعلاقتها بالحضارة الغربية

د. دوحه عبد القادر

جامعة خميس مليانة

### Abstract:

Since the victory of Napoleon Bonaparte on the Mamluks in Egypt, the Arabs felt that the reason for the military superiority West return to scientific excellence, which enabled him to invent weapons of war was not for Muslims like her, Fastouhy Muhammad Ali attempts to reform of Turkey and sent scientific expeditions to Europe, and established schools and scientific colleges and military , and brought European scientists to Egypt.

And increased sense of Arab military superiority to the West after the Ottoman Empire began to lose its colonies, one after the other. Tunisia and did not differ much from any Arab state of scientific and cultural terms.

### Keywords:

Kingdom – Weapons of war – Reform – Libraries– Scientific activity

منذ انتصار نابليون بونابرت على المماليك في مصر أحس العرب بأن السبب في تفوق الغرب العسكري عائد إلى تفوقه العلمي الذي مكنه من

اختراع أسلحة حربية لم يكن للمسلمين مثلها، فاستوحى محمد علي محاولات الإصلاح من تركيا وأرسل البعثات العلمية إلى أوروبا، وأنشأ المدارس والكلية العلمية و الحربية، و استقدم العلماء الأوروبيين إلى مصر. وازداد إحساس العرب بتفوق الغرب العسكري بعد أن بدأت الدولة العثمانية تفقد مستعمراتها، الواحدة تلو الأخرى. ولم تكن تونس لتختلف كثيرا عن أية ولاية عربية من الناحية العلمية والثقافية. كانت هذه هي الحقيقة التي صدمت خير الدين التونسي وجعلته يتأسف على أوضاع بلاده وما آل إليه العلم فيها. وقبل التعرض تجربة خير الدين الإصلاحية في الميدان الثقافي والعلمي، لا بأس أن نلقي نظرة على مظاهر الحياة الثقافية والعلمية في أوروبا خلال القرن 19م والتي عكستها كتابات الرحالة المغاربة الذين زاروا أوروبا وتعرفوا على منجزاتها الحضارية.

#### -الحياة العلمية:-

تظهر لنا من كتابات الرحالة المغاربة النظرة الإجمالية العربية للعلوم الغربية. فإذا كان الطهطاوي قد وصف الفرنسيين بميلهم الطبيعي إلى تحصيل المعارف بل و تشوقهم الدائم إلى معرفة سائر الأشياء حتى وصلت درجة تولعهم بالمعرفة للحد أصبح فيه «عامتهم يعرفون القراءة والكتابة».<sup>(1)</sup> فقد أعجب بيرم الخامس بالمكتبات الإيطالية إعجابا كبيرا لما رآها مكتظة بمئات الرجال والنساء منكبين على المطالعة فأستنتج أن: «أهالي هاته البلاد معارفهم أوسع».<sup>(2)</sup>

وكان إعجاب محمد سعيد بن علي شريف بالعلم والمكتبات العامة في باريس كبيرا، فذكرها مكتبة بمكتبة وقدم عن كل واحدة منها تعريفا موجزا يوضح تخصصها وعدد الكتب والمخطوطات الموجودة فيها. ولم يستخدم محمد السعيد كلمة مكتبة، بل أطلق عليها مصطلح " الخزانة "، فالخزانة

السلطانية [ المكتبة الوطنية ] أهم المكتبات في باريس ذكر محمد سعيد بأن بها حوالي أربعمئة ألف مجلد من الكتب المطبوعة والمخطوطة بلغات العالم المختلفة، كما تضم هذه المكتبة عدد كبيرا من الكتب العربية النادرة.

هذا ولقد ربط محمد السعيد بين ما وجدته في هذه المكتبات من كتب يقبل الناس على قراءتها والنهل منها، وما شاهده من مناظرات علمية بين الأشخاص فيما يخص المسائل الفكرية والثقافية فقال: «ولذلك نجد أن أغلب أهل فرنسا يبحثون ويتنازعون في مسائل علمية وثقافية... ويوجهون ويبحثون أولادهم على التعليم».<sup>(3)</sup>

ولم يفت بيلم الخامس أن ينوه بالمكتبات العمومية وهو يتجول في المدن الإيطالية والفرنسية والانجليزية ولفت انتباهه وهو يدخل إحدى مكتبات مدينة نابلي كثرة المطالعين للكتب من النساء والرجال، فوصل إلى خلاصة مفادها أن المكتبات في البلاد الأوربية هي المقياس حقيقي لثقافة الشعوب وتنوع معارفها «لما دخلت إلى خزنة كتبها وجدتها مفعمة بمئات من الرجال والنساء كل منهم منكب على المطالعة في كتاب ولا تجد حسا لواحد إلا همسا لكي لا يشوشوا على بعضهم، فمن مطالع ومن مقابل ومن ناسخ ومن مفكر، فعلمت أن أهالي هاته البلدة معارفهم أوسع، وسقوها لديهم أروج» هذا ولقد وجد بيلم أن تلك الكتب مكتوبة بعدة لغات حتى العربية منها، «فمما رأيته مصحف كريم مطبوع بالطبع الحجري، ثم كتاب يسمى الكمال المسيحي، ثم مجلد يشمل على توراتهم وأناجيلهم مكتوب بلغات ستة»<sup>(4)</sup>.

ولا يخفي الحجوي انهياره مما شاهده في الخزنة الوطنية في باريس، إذ يدخل إحدى غرف الخزنة ويرى أنها: «وقد دخلنا إلى أحد البيوت التي جعلت فيها الكتب فإذا هو على خمس طبقات، كل طبقة مملوءة بالكتب من الأرض

إلى السقف...» ويقال له أن الغرفة تحوي ما كتبه علماء أمريكا وحدهم:» فقلت في نفسي هذه أمور جاءت في الزمن الأخير ألف علماءها هذا العدد من الكتب وما استقلت إلا منذ نحو مائة وخمسين سنة. فما أعظم مدارك البشر إذا كان عائشا في جو صاف يستنشق هواء الحرية المطلق» ثم يضيف «وكيف لا يدهش الإنسان إذا رأى ما ينيف على ثلاثة ملايين من الكتب المطبعية وما أناف عن مائة ألف كتاب خطية، وقالوا أن العدد أكثر من ذلك؟ ثم كيف لا يدهش المرء، من جهة أخرى، وهو يرى تلك الصورة الأخرى الدالة على ضعف العناية بالكتاب»<sup>(5)</sup>

وفي سياق حشده لمظاهر الدهشة والاندهاش وتبييض صورة الحكام الفرنسيين المتسامحين مع الشعوب الأخرى حتى العربية والإسلامية منها، تكلم سليمان بن صيام كذلك عن المكتبات العمومية في العاصمة باريس وبعبارات محشوة تكلم عن ذلك قائلا:» ثم أن أهل الدولة من كثرة عدلهم واعتنائهم بالأمور جمعوا أنواع الكتب الموجودة وجعلت لها خزائن وحفظوها من كتب جميع الأجناس، حتى أن كتب المسلمين المعتبرة التي قل نظيرها في بلاد المسلمين موجودة هناك وغيرها مما لا يحصى مع اختلاف متونها. أيضا من عدلهم إذا جاء إنسانا غريبا وتوطن بلادهم واحتاج إلى النظر في الكتب يمكن من ذلك نيل غرضه وقضاء وطره».<sup>(6)</sup>

وفي حديث يبرم عن المرتبة التي تحتلها باريس في مجال التعليم واستقطابها للكثير من طلاب العلم ومن جميع بلدان العالم يقول:»...على أن المثريين يؤثرون التعليم من البداية في باريس، بل ولا يختص هذا بأهل فرنسا، فإن الكثير من ممالك المشرق وبعض غيرها يرسلون أبناءهم للتعليم بها، وفضلا عن الفخر بالعلم يفتخر بالتعلم بها وهي جديرة بذلك لولا طيش في أخلاق غالب المتعلمين. بها من الغرباء سيما المسلمين فإنهم يحدث لهم فساد في أخلاقهم لخروجهم عن الطور والأدب الداعي له العرض والدين، وكان

سبب ذلك رؤيتهم بها كثرة الخلاعة والإطلاق والنفوس مائلة إلى الخباثت نسأل الله التوفيق...»<sup>(7)</sup>

في السياق نفسه، نجد السنوسي يشيد في استطلاعاته الباريسية بمحاسن العاصمة الفرنسية ثم يلفت انتباه قارئه إلى العناية التي يولها الفرنسيين لتطوير العلوم والمعارف، نورد هنا بعضا من عباراته، رغم ما فيها من حشو: «أقول صدق من قال أن باريس أم المعارف في البلاد الأورباوية، وله شواهد على صدقه من أعظمها حالة الباريسيين في اتساع طرق التمدن إلى أقصى الغايات التي بلغ إليها العمران البشري في هذا العصر، ومن تتبع أحوال المدارس على كثرتها وسعة تعليماتها ووفور مصاريفها وتعميم نفعها إلى غاية أمكن بها أن تكفي نشأة الأمة الفرنسية وتعم غيرهم من الراحلين في طلب العلم يجد بين يديه برهانا واضحا على أن البلاد الفرنسية سبقت سائر البلاد الأورباوية في سائر وجوه المعارف...»<sup>(8)</sup>

وقارن محمد السنوسي بين حالة العلم في العالم العربي الإسلامي ووضعها في العالم العربي المسيحي أثناء حديثه عن زيارته لمعرض الأهالي بنابلي وما شاهده في أقسامه من اعتناء بالكتب القديمة ونسخها وطبعها وترجمتها خاصة كتب الفلسفة اليونانية فأصبحت في متناول القراء ثم قارن ذلك بحالة العلم والعلماء في تونس ووجهه بالمناسبة انتقادا لاذعا لهم تجلى في الفقرة التالية «...وهناك وقفت مليا أفكر في أمر هذا الجيل وما لهم من الاعتناء بتكثير المعارف والتثقيف عليها ونشرها إلى نفع عموم جنس البشر، حتى وصلوا إلى هاته الغايات وبذلك تحقق سبب تقهقر أمرنا بين أمم العالم. فلاحظت أن أفراد علمائنا يتباهون بأن الواحد منهم له كتاب غريب يخل به عن بني جنسه، وبعض يكتنم ما يجد لأسلافه من الآثار العلمية، ثم لنا في خزائن الكتب من تأليف الفحول، ومنها ما تلاشى بعضه...»<sup>(9)</sup>

فالسُنُوسِي بكلامه هذا ينتقد ظاهرة سلبية تفشت في العالم الإسلامي عصرئذ وهي ظاهرة كتم المعارف والمؤلفات، وبالمقابل تجده يمدح الغربيين بما يقومون به من بحث علمي ثم يعرضون ما يتوصلون إليه من

معارف جديدة في معارض عامة ليطلع عليها الزوار أو ينشرونها في كتب بواسطة المطابع لترويجها بين القراء ويحققون بذلك أرباحا تجارية.<sup>(10)</sup>

ولعل السنوسي في تحليله هذا يلتقي مع خير الدين التونسي في جانب من جوانب نظريته للعلوم الغربية التي أنصبت على فوائدها على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي. فقد شاهد خير الدين مظاهر الثروة والمدنية بأوروبا وأدرك أن تطور الصناعة والزراعة والتجارة مرهون بتطور العلوم والفنون. وحتى فيما يخص الجانب السياسي ونظام الحكم بصفة خاصة وأدرك خير الدين كذلك أن الحاكم لا يستطيع أن يستبد برعيته متعلمة ومثقفة.<sup>(11)</sup>

ولقد أهتم خير الدين بالجانب العلمي من الحياة الأوروبية بحكم أنه عرف في البلدان الأوروبية العلم بمعناه الحديث وبمؤسساته الكثيرة وبفروعه المتعددة فأشار في هذا السياق إلى ازدواج النظام التعليمي الأوروبي وكثرة عدد المدارس والمعاهد والأكاديميات<sup>(12)</sup> ولاحظ إقبال الأطفال على التعليم وعرض عرضا مفصلا لأسماء العلوم والفنون<sup>(13)</sup> التي اعتنى بها الغربيون معرّفا بموضوعاتها وملخصا لمحتوياتها. وموضحا لمراحل التعليم المختلفة.<sup>(14)</sup>

وفي هذا السياق أكد خير الدين أن الأوروبيين يعتمدون على البحث العلمي وأنهم يطمحون دائما إلى تخطي أسلافهم فيما يتكرون، ولذلك تقوم الدولة بمساعدتهم « وتعتني بمن اخترع شيئا لم يسبق إليه، أو جاء بعمل مفيد... »<sup>(15)</sup> ويقول خير الدين في الابتكارات والاختراعات الجديدة التي تعرض أمام لجنة لتقييمها أن أعضاء هذه اللجنة « إن وجدوا شيئا منها مستبدا أعطى مخترعه قطعة تسمى الميدالية » و يواصل خير الدين حديثه عن الاختراعات وعناية الدولة بها منوها هذه المرة بالامتيازات التي تمنح لهؤلاء المخترعين مثل « الشهادة له بالكمال والتقدم فيما هو بصدد من الأعمال وربما

أعطى المخترع مبلغا من المال»<sup>(16)</sup> ويتحدث بعد ذلك عن ما يعرف بالملكية الفكرية فيقول «كما يعطى المخترع أيضا الرخصة في الاستبداد باصطناعه مدة لا يسطنعه غيره فيها إلا بإذنه» وبالإضافة إلى ذلك كله «تجعل صورته من رخام أو من نحاس وتوضع في الأماكن المعدة لاجتماع الناس... ليبقى بذلك ذكره»،<sup>(17)</sup> وعليه فقد اعتبر خير الدين أن العلوم هي أساس التمدن وبدونها لا قوة ولا تطور.

#### الحياة الثقافية:

بالنسبة لمظاهر الحياة الثقافية في أوروبا، تطرق الرحالة العرب إلى الفنون والمسرح واللغة والصحافة كذلك. وصف الطهطاوي و الشدياق حفلات الموسيقى والغناء والأوبرا والمسرح، وتمنى الشدياق لو أن العرب أخذوه عن اليونانيين كما أخذوا عنهم الفلسفة غير أن الشدياق عنى بالموسيقى عناية خاصة، ولا شك أن السبب في ذلك هو حبه للموسيقى وميله الفطري إليها، العائد إلى رومانسيته المفرطة التي نستنتجها من تمسكه الشديد بآلات الموسيقى وخاصة الطمبور.<sup>(18)</sup> هذا وقد وصف الطهطاوي المسرح الغربي وعني به كثيرا، ولعل ذلك عائد إلا أن المسرح كان فن جديدا كل الجدة بالنسبة إلى العالم العربي وقتئذ.<sup>(19)</sup>

أما بالنسبة للرحالة المغاربة، فقد انهر ابن أبي الضياف كذلك بهذا النوع الثقافي فأطنب في وصفه لمسرحية شاهدها رفقة المشير أحمد باي الذي دعاه الملك الفرنسي إلى حضورها وقال ابن أبي الضياف عن المسرح بأنه «مجعل لتربية الناس وتهذيب أخلاقهم» وربما يكون ابن أبي الضياف قد حكم على المسرح بهذا الحكم بعد ما تمعن في قصة المسرحية الطويلة التي تطرقت إلى موضوع تحرر المرأة الأوروبية التي رأى بأنها تتخذ قراراتها الفردية -حتى ما يتعلق بالزواج - بمفردها ودون دخل لأحد حتى من والديها.<sup>(20)</sup>

ولم يفت بيرم الخامس كذلك أن ينظر إلى ألوان التثقيف الموجودة في البلاد الأوروبية فتحدث عن أساليب التسلية الجامعة بين الترفيه والتكوين، ومنها المسرح دون أن يذكر اللفظة. فهو في حديثه عن "ملاهي" باريس مثلا

يذكر التثقيف المسرحي عن طريق التمثيل و يعترف بفوائده في تربية الفرد والمجموعة البشرية على حد سواء. لكنه سرعان ما يستدرك بفعل نظره النقدي الكلام في مساوئ العمل المسرحي في بعض الأحيان وينتقد إغفال الفرنسيين ذلك بقوله: «..والحاصل أن ملاحظهم لا تخلوا من فائدة معتبرة..ومع ذلك فهم غافلون عما فيها من مفسدة مهمة، وهي تعليم الشبان والشابات أوجه العشق...ووسائله». فبيرم الخامس لا يستسيغ المسرحيات الغرامية بصورة خاصة لتأثيرها السيئ في أخلاق المسلم وسلوكه حسب نظره وهو بالتالي لا يشجع على واقتباسه<sup>(21)</sup>

ولا يبدو أن المسرح قد وقع من نفس الرحالة المغاربة(المغرب الأقصى) موقع الاستحسان أو أنه أثار عنده شهوة النظر ولذة المشاهدة. فيذكر سفير الحسن الأول (الجعايدي) أنه كان يقصد المسرح بدافع المجاملة والياقة ليس غير: «وفي بعض الليالي السالفة لنا في باريس، كان كبراء الدولة يتخذون لنا المواضع الخاصة بديار الفرجات عندهم، المسماة عندهم بديار الطياترو، ويرون ذلك من وجوه المبرات بنا والإكرام لنا، فكنا نتوجه إليها مساعدة»<sup>(22)</sup>

أما فيما يخص الصحافة، فقد رأى الطهطاوي الصحف لأول مرة أثناء إقامته في باريس ووصفها مبينا أنواعها، وكيف تباع وتشتري، ومحتوياتها كما نوه بفوائدها الكثيرة. وتطرق بيرم الخامس كذلك للصحف الخيرية وأعتبرها من وسائل التثقيف ونشر المعارف إضافة إلى دورها في التجارة وترويج الصناعات ورأى أنها تتعدد بتعدد الموضوعات.<sup>(23)</sup>

وتحدث محمد السنوسي عن فن آخر من فنون التثيف ربما يكون قد أغفل من طرف الرحالة الآخرين، يتمثل في المتاحف التاريخية، والتي اعتبر لها فائدة عظيمة فهي تفيد المرء في معرفة ما كانت عليه الأمم السابقة «وحيث



إن النظر في هاته الآثار بجميع أقسامها المعدنية والنباتية والحيوانية والصناعية هي أقرب طريق يفيد في تحقيق حال الأمم السابقة الذين أمرنا الله بالنظر في عواقبهم، اعتنت الدول بإقامة معارض عمومية جلبوا إليها ما أمكنهم الحصول عليه من تلك الآثار العتيقة، وقسموها على حسب أقسامها.. وأباحوا للعموم الدخول لمحل جمع الغرائب المذكورة لينظر فيها العلماء ويستخرجوا منها ما يفيد الأمة وقد نتجت لهم من ذلك فوائد عظيمة.<sup>(24)</sup>

ويستمر السنوسي شارحا للأهداف العلمية لهذه المتاحف، و مرغبا فيه بالاستدلال على ذلك بآيات قرآنية في هذا الشأن «وليس المراد منها مجرد التفرج في مصنوعات عتيقة فتلك المحال ليست إلا مدارس لعلوم عتيقة يعلمها أهل العلم. وللمتفرجين مساح ومغان يلهون بها أين شأؤوا وفي قوله تعالى: «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها».<sup>(25)</sup>

أما خير الدين التونسي فنجد أنه كاد أن يغفل في كتابه هذه الأنواع التثقيفية ما عدى الصحافة التي ترتبط ارتباطا وثيقا مع السياسة ونظام الحكم. ولذلك اكتفى بإشارة عابرة إلى رقي إيطاليا «الصناعات المستظرفة المسماة عندهم بوزار، وهي صناعة الدهن والنقش وهندسة البناء والموسيقى».<sup>(26)</sup> وربما يكون هذا الإغفال كذلك إلى موقف الإسلام التقليدي من هذه الفنون. غير أن الصحافة والطباعة والنشر اعتبرها «من أقوى أسباب التهذيب والتمدن»، لأنها تطلع القراء على معلومات جديدة، وتطلع الشعوب المختلفة على اختراعات بعضها البعض، فيتمكن المتأخر منهم من الإقتداء بالمتقدم والاستفادة منه.

ونوه خير الدين بالطباعة والنشر فقال: «ولهم أيضا الرخصة في طبع الآراء ونشرها في البلاد في أسرع وقت، ولا يتوقفون على استئذان في إنشاء جرنال أو تأليف كتاب في أي غرض شاءوا»<sup>(27)</sup> غير أن خير الدين أشار إلى

واجب مراعاة أن تعرف الدولة مؤلف الكتاب أو الجريدة ليحاسب على ما يكتب إذا خرج عن العادة ودخل في هتك الأعراض الشخصية أو التحريض للخروج عن الطاعة.

لكن ما أعجب خير الدين في الصحافة هي حريتها، التي تمكنها من تنبيه القراء إلى النقص في الدولة والمجتمع وتسمح بالاعتراض على سيرتها وانتقاد نظام الحكم والحاكم نفسه بغية إصلاحه وتقويم تصرفاته. وإلى جانب ذلك فهي وسيلة يدافع بها المظلوم عن حقه ويضمن لنفسه حكما عادلا.<sup>(28)</sup> ولذلك يمكن أن نقول أن خير الدين أحس بحاجة العرب الماسة إلى هذا السلاح الفكري الذي يعمل على تنبيه الشعب من غفلته، بقدر ما يساعد على تقويم الدولة والحكام.

إذا كان جل الرحالة العرب من المشاركة أو المغاربة - أمثال الطهطاوي و الشدياق وابن أبي الضياف والصفار وحمدان خوجة...، وهم من الذين أقاموا بأوروبا لفترات، أو زاروها في مناسبات مختلفة، قد سلموا لها بالقوة واعترفوا لها بالحضارة خلال القرن التاسع عشر وهو ما يظهر من خلال مدوناتهم التي سجلوا فيها كل ما يخص الحياة الأوروبية. كل حسب طريقته وميله ونظريته. فإن خير الدين التونسي نفذ إلى أعماق العقل والفكر الأوروبيين ولم يكتف بوصف المشاهدات، ورأى في أوروبا الوسيلة الكافية لاسترجاع العرب لقوتهم التاريخية، حتى لا يقعون فريسة لها بل عليهم التعايش معها، والأخذ عنها وطلب مساعدتها.

ولذلك فقد دعا الحكومات والأفراد إلى الإقتداء بالأوروبيين مبينا لهم جميعا أن الاستعانة بعلماء الغرب وعلومهم المختلفة<sup>(29)</sup> لا يتنافى ودعوة الإسلام إلى العلم، لأن الحضارة والمعرفة والعلوم ليست وقفا على شعب دون

الآخر، بل إنها جاءت نتيجة تكامل الحضارات والجهود الإنسانية المختلفة، محاولاً إقناعهم بأن علوم المسلمين وحضارتهم قد أسهمت في توصيل الغرب إلى ما وصل إليه فلولا العرب لما توصلت أوروبا إلى مستواها العلمي الحاضر. ومهما يكن من أمر، فلا شك أن الزمن، وظروف الاصطدام والاحتكاك الأخرى، قد لعبت الدور الحاسم في تطور الأفكار، وتصحيح المفاهيم، لدى مؤرخي ورحالة القرن 19م (في البلاد المغاربية)، الذين تعرضنا لمضامين مؤلفاتهم التي عكست نظرتهم إلى أوروبا أمثال: أحمد بن أبي الضياف و محمد السنوسي، وبيرم الخامس، وخير الدين التونسي، وحمدان بن عثمان خوجة، ومحمد الطاهر الفاسي، و إدريس العمراوي، وأحمد الكردودي، ومحمد الصفار، وإدريس العمراوي، ومحمد الحجوي... هؤلاء الذين ظهرت كتاباتهم في تواريخ مختلفة، وصل التباعد فيما بينها حتى إلى أكثر من نصف قرن، ولكنها عبرت عن موقف متشابه وثقافة واحدة فربطت بداية القرن 19م بنهايته، إنها ثقافة الإعجاب والتواضع وقبول الآخر، وثقافة الانفتاح بحثاً عن علة التخلف، ومعاينة أسرار التفوق والتقدم للحاق به والأخذ عنه ومحاكاته، ونقل منجزاته المادية والحضارية. عبر مشاريع إصلاحية منظمة سعى أصحابها في تجسيدها على أرض الواقع في بلدانهم، على غرار المشروع الاصلاحى لخير الدين التونسي.

اذ لم تكن تونس لتختلف كثيراً عن أية ولاية عربية من الناحية العلمية والثقافية. فلم يكن للنشاط الثقافي وجود يذكر، كما أن الحياة العلمية فيها كانت على قدر كبير من الضعف. إذ أن الكتاتيب، وهي التي قامت مقام المدارس، لم تكن برامجها تخرج عن شيء مقرر منذ مئات السنين، وهو تلقين الطالب شيئاً من القرآن، وشيئاً من النحو والصرف والفقه. وكان أكثر سكان تونس أميين.<sup>(30)</sup> أما إذا أنتقلنا إلى الضفة الأخرى فسنجد الواقع عكس

ذلك تماما. حيث انتشر المدارس والمعاهد العليا والجامعات، وتعددت المراكز الثقافية والتربوية والترفيهية.

كانت هذه هي الحقيقة التي صدمت خير الدين التونسي وجعلته يتأسف على أوضاع بلاده وما آل إليه العلم فيها، خاصة وأنه كان للجاليات الأوروبية في تونس مدراس تعلم أبناءها اللغات والجغرافيا والتاريخ والحساب فتخرج من هم أقوى على فهم الحياة، فإذا انغمسوا فيها تحولت مالية البلاد إلى أيديهم.<sup>(31)</sup>

انطلاقا من هاذين الواقعين المتناقضين، شرع خير الدين في عملية إحياء علمية وثقافية أقامها على أربعة أركان أساسية، كان لها أثر بعيد في التطور الفكري التونسي، وهي إنشاء المدرسة الصادقية، وإصلاح التعليم الزيتوني، وإنشاء المكتبة العبدلية، وتشجيع الطباعة والصحافة والنشر.

#### -إصلاح التعليم الزيتوني:

كانت غاية التعليم في البلاد التونسية بث القواعد والمعلومات التي تمكن المتعلم من تدعيم عقيدته واكتساب لغة القرآن. ويتضح من ذلك أن التمكن من التعليم يتحقق بوجود عالم وطالبي علم، فلا يحتاج التعليم إلى معاهد معينة، ولا يخضع لقوانين مسطرة ولا إلى برامج، كما لا يتقيد بمراقبة من طرف السلطة السياسية، ولم يكن المقصود الأصلي من التدريس تحصيل الشهادات لتكون وسيلة للارتقاء، وإنما كان لتحصيل العلم ورفع الجهل.<sup>(32)</sup>

ثم جاءت دولة أحمد باي المشير الأول، فصرف الباشا عنايته إلى العلم وأهله، ومن اهتماماته ما حبسه من الكتب على جامع الزيتونة، كما أن أهم ما قام به الباي هو أمره الذي أصدره في (23 رمضان 1258هـ / 1 ديسمبر 1842م) بشأن ترتيب التعليم بجامع الزيتونة، وقام بانتخاب خمسة عشر عالما من المالكية ومثلهم من الحنفية وجعل لهم مرتبات، وقلد النظر فيه لشيخ الإسلام الحنفي والمالكي.

لكن بعد وفاة المشير أحمد باي، فإن شيوخ التدريس قد ضعفت همهم، فكثرت خلفهم عن التدريس، وقل امتثال المشايخ النظار لما أنيط بهم من مراقبة للمدارس وقيامهم بواجباتهم.<sup>(33)</sup> أدرك أحمد باي الذي زار فرنسا وتأثر بها لما في العلوم من أهمية في صنع الحضارة. ولم يشذ خير الدين التونسي عن هذه القاعدة فقد أهتم بالتعليم وجعله رهان إنجازه، فمند مجيئه إلى الوزارة الكبرى دعم الاتجاه الذي كان قد بدأه أحمد باي، والذي كان يهدف إلى وضع التعليم تحت سيطرة جهاز الدولة.

عرض خير الدين على المشير الصادق باي إصدار أمر بتنظيم التعليم بالجامع الأعظم، وانتخب لذلك لجنة من علماء الزيتونة ورجال الدولة لتقرير هذا النظام وتحريير فصوله.<sup>(34)</sup> وأصدر الباي أمره عام (1292هـ/1875م) في ترتيب التعليم، وكان مشتملا على سبعة وستين فصلا، تنقسم إلى أربعة أبواب رسمية تتعلق بالعلوم المدروسة، وشؤون المدرسين والطلبة، وأعمال المشايخ النظار، وطريقة تنظيم الامتحانات. وعزز الوزير خير الدين هذا الإصلاح والتنظيم بإحداث وظائف ثلاث: مستشار للمعارف بالوزارة الكبرى، وتعين نائبين لهذا المستشار بالجامع الأعظم، وبهذه الطريقة تمكنت الدولة من مراقبة التعليم، وصارت تحت مراقبة خير الدين بنفسه.

وجاء هذا الترتيب فقسم التعليم أيضا إلى ثلاثة درجات إقتداء بالدول الأوروبية يمكن أن نعبر عليها بالعالية والثانوية والابتدائية. كما دعم المنشور نظام التفتيش والمراقبة. وقد قام خير الدين بتوسيع العلوم المدروسة بجامع (الزيتونة) يمكن أن نذكر منها، الهندسة المعمارية والرياضيات، والفلسفة والحقوق، والآداب والتاريخ والجغرافيا، والرسم الهندسي والحساب والفلك وعلم المساحة (الطوبوغرافيا).<sup>(35)</sup> وهي علوم حديثة ذات

علاقة وثيقة بأسس التقدم في الغرب الأوروبي لا سيما وأن خير الدين كان يرى في هذا التقدم نتيجة حتمية لتطور العلوم والمعارف.<sup>(36)</sup>

يقول بيرم الخامس في هذا المقام أن من أعمال خير الدين الجليلة «... ترتيب العلوم وتدريسها بالجامع الأعظم جامع الزيتونة وضبط الدروس...» بحيث تجري على الوجه المطلوب «...وجعل امتحان للتلاميذ في كل سنة حتى لا يتقدم للوظائف العلمية إلا من قدمته نجابته وتحصيله».<sup>(37)</sup>

أما الكتب المعتمدة في تدريس المواد اللغوية حسب ما جاء في الإصلاح الصادر عام 1875م فهي كما يلي «...ولا يدرس النحو بالمرحلة العليا، أما في المراحل الأخرى فقد تم تحديد الشروح و المتون التي ستعتمد في تدريس الطلبة، مثل مقامات الحريري لابن رشيق وغيرها، وهي قصائد في مدح الرسول، ونجد كذلك تدريس كتاب المثل السائر لابن الأثير».<sup>(38)</sup>

وقد جاء هذا الأمر بناء على ملاحظة الجنرال حسين الذي تولى وضع تقرير عن حالة التعليم في تونس. فقد لاحظ السيطرة النحوية على التعليم الزيتوني، بل سجل انتقاده قائلاً: «النحو الذي اشتهر تشبيهه بالملح في الطعام يوجد منه بالجامع الأعظم ما يزيد عن مائة درس، والحالة هذه كمن يأكل الملح بالطعام لا الطعام بالملح».<sup>(39)</sup>

وبالإضافة إلى الحركية التي أدخلها خير الدين على العلوم المدروسة، أعطى أوامره لجعل الطلبة المتحصلون على التطويع إمكانية الجمع بين تلقي الدروس في المرتبة العليا و الاستفادة بالتدريس للمرتبة الأولى من التعليم الزيتوني، و ذلك للاستعانة بتلك الساعات التي تجمع لهم في آخر السنة مقدارا من المال.<sup>(40)</sup>

وقد وصف محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "الحركة الأدبية والفكرية في تونس" أن إصلاحات خير الدين كان لها الصدى الحسن في

صفوف الطلبة وفي صفوف النخبة خاصة وأن بعض الشيوخ الزيتونيين كانوا غير متحمسين في البداية لإدخال العلوم العصرية ضمن العلوم المقررة دراستها في الجامع الأعظم.<sup>(41)</sup>

#### -إحداث التعليم العصري:

لم يكتف خير الدين بإصلاح التعليم الزيتوني، بل عمد إلى بعث مؤسسة تعليمية عصرية على النمط الأوروبي وذلك بتأسيسه للمدرسة الصادقية، وهي مؤسسة علمية يغلب عليها الطابع العلمي. كانت اللجنة المؤسسة للمدرسة الصادقية، والتي شكلت لإعداد قانونها وبرامجها برئاسة خير الدين، وكانت هذه اللجنة مكلفة في نفس الوقت بالنظر في ترتيب أحوال الدروس بالجامع الأعظم و"أحوال المكتب الجديد" الذي أذن الصادق باي بفتحه.<sup>(42)</sup> وقد جاء في الأمر المؤسس لهذه المدرسة، أن التعليم بها يشتمل على القرآن والخط واللغات الأجنبية، والعلوم النقلية والعلوم العقلية التي يمكن أن تكون مفيدة للمسلمين ما لم تتعارض مع عقيدتهم.<sup>(43)</sup>

وزيادة على المدرسة الصادقية أنشأ خير الدين إقامة خاصة بالتلاميذ، هؤلاء التلاميذ اللذين قال بشأنهم بيرم الخامس أنهم «...يسكنون بالمدرسة وتقوم بهم زيادة على التعليم، بالأكل و اللبس والمسكن مجاناً...» ويضيف متحدثاً عن حسنات خير الدين فيقول عنه «بأنه أوقف عليها من أملاك الحكومة أوقافها...»، حتى ذاع صيتها وتخرج منها «من أبناء البلاد ما يشهد لهم به الوافد من أهل أوروبا والحاضرون لامتحانهم». وعند استكمالهم لمعارفهم يمكنهم أن «يتقدموا في جميع الوظائف المحتاج إليها في القطر على غيرهم...».<sup>(44)</sup>

ودائماً في إطار الدعم المادي الذي قدمه خير الدين إلى هذه المدرسة ولضمان مجانية التعليم بها،<sup>(45)</sup> يذكر الأستاذ "زهير الزوادي" أن خير الدين قام بتعزيز قدراتها بوضع (231) ملكية عقارية انتزعتها الحكومة من مصطفى خزندار بعنوان تسديد الأموال العمومية التي اختلسها على ذمتها.<sup>(46)</sup>

وقد كان خير الدين في كل ذلك حريصا على التأكيد بأن التجديد لا يتعارض في المجالات التربوية مع روح الدين الإسلامي، وهو ما ظهر بوضوح في أن المدرسة الصادقية لم تكن منذ تأسيسها غريبة عن برنامج الزيتونة وأن العلاقة التي جمعت بين هاتين المؤسستين كانت وطيدة، تميزت بالأخذ والعطاء والتفاعل المتواصل رغم اختلاف نظامي التعليم بها، وهو ما عبر عنه الأستاذ "حفناوي عمارية" من أن خير الدين وإن كان في مشاريعه يرسم خط النهضة بالبلاد الأوروبية، إلا أنه كان يحرص على تأصيلها في البيئة الثقافية الإسلامية وذلك بعقد مصالحة بين المدنية الغربية والإسلام، وأن هذا التوجه ترجمه فعليا في مد اليد إلى رجال الدين، لاسيما أولئك الذين أبدوا استجابة لندائه، فأشركهم في تصميم مشاريعه والإشراف على تنفيذها انطلاقا من فلسفته الإصلاحية التي تقوم على تعاون رجال الدولة والعلماء كشرط ضروري للنهوض.<sup>(47)</sup>

كان خير الدين يقر بأن موازين القوى بين القطب الإصلاحي والقطب الرجعي ضمن النخبة الحاكمة في الإيالة ليست في صالحه، ولذلك أتجه عن قناعة إلى الاستثمار الاستراتيجي في التربية والتعليم، مما يساعد على تكوين نموذج جديد من النخبة العصرية المفتوحة على قيم التجديد والإصلاح، حتى أن المتتبع لنظريته وفكره العلمي يمكن أن يستنتج أنه بالنسبة إليه لا خلاص لتونس إلا بتطوير المعارف، ولذلك لم يمكن هدفه من تأسيسه للمدرسة الصادقية مجرد التعليم فحسب، وإنما الهدف منها هو إنشاء إطار موضوعي لتكوين نخبة مثقفة قادرة على إحداث التغيير في جميع المجالات.<sup>(48)</sup> ولعل هذا ما دفع الأستاذ حمادي الساحلي إلى القول بأن فكر خير الدين التونسي تجاوز سنة 1881م، باستفادة رواد الحركة الوطنية وهم في غالبيتهم تلاميذ المدرسة الصادقية الذين تمكنوا فيما بعد من تأسيس الجرائد والجمعيات الثقافية ونشر الوعي الوطني في صفوف الشعب التونسي.<sup>(49)</sup>

وبالتالي لا شيء في رأينا- يفسر الحرص الخاص لخير الدين وتحمسه لإصلاح التعليم، سوى رغبته في تكوين فئة ذات تكوين إداري وسياسي يمكنها



تسلم الوظائف الإدارية فيما بعد<sup>(50)</sup>. وهكذا يمكن القول أن خير الدين نجح نجاحا عظيما من إنشاء الصادقية وإصلاح التعليم الزيتوني بحيث أصبحت الشبيبة التونسية على اختلاف منهجي تعلمها متأثرة ومتعلقة بشخصه تعلقا مباشرا، تمتزج به وتستمد توجهها الأدبي منه. ولقد أعانت المكتبة على تعميم هذا التوجه.

#### -المكتبة العبدلية:

قام خير الدين بهدف تعميم توجهه العلمي والثقافي بتأسيس مكتبة وطنية تستجيب للمقاييس العلمية المعمول بها في بلدان الغرب الأوربي . يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور أن تأسيس هذه المكتبة كان طبقا للمنشور الصادر سنة 1875م، في محل مكتبة قديمة من عهد الحفصي كانت قد اندثرت، فعادت زهرتها وتجدد شبابها وجاءت في محلها وأدواتها ومرافقها على أحدث طراز تعزى بالمطالعة وتقرؤها من ميل عموم المثقفين.<sup>(51)</sup>

لقد أعجب بيرم الخامس بهذه المكتبة فتحدث عنها في فقرة مطولة نقتبس منها محل حاجتنا. يقول صاحب الصفوة بأن خير الدين «جعل لهذه المكتبة ترتيبا لم يسبق في البلاد على نحو الترتيب الجارية في الأستانة والممالك المتمدنة، بحيث لا يخرج الكتاب من المحل، ويستنفع المرید بما شاء من الكتب» أما عن وضعية الكتب داخل أدرجها فيقول أنها مرتبة «على نسق ليسهل الانتفاع بها ومناولتها».<sup>(52)</sup>

أما بالنسبة للكتب الموجودة في هذه المكتبة فقد قام خير الدين بجمع كامل الكتب التي كانت متفرقة في المدارس والمساجد، وأوقف عليها جميع كتبه الشخصية والمقدرة بحوالي ألف ومائة كتاب، بالإضافة إلى تحبیس جانب من الكتب التي دفعها مصطفى خزندار فيما عليه للدولة وجعلها بخزائن هذه المكتبة، التي ساعدت على تلاقي المطالعین في مكان واحد. مما

يساعد على إبراز وحدة المثقفين وتشجيعهم وتقوية شعورهم بسمو الوسط الثقافي الذي ينتمون إليه.

كما أن ما جمع في المكتبة من المخطوطات والمطبوعات الحديثة الصادرة في استنبول أو "بولاق" والصادرة في أوروبا،<sup>(53)</sup> والصحف ونصوص القوانين و التراتيب المتعلقة بالبلاد التونسية أو غيرها من البلاد، فقد كان عاملا قويا في وصل مدارك المثقفين بتيار عقيدتهم، فشاعت بذلك كله المعارف وانتشرت الآداب وتقوت محبة المعرفة والمطالعة، ووجد القراء مجالا لأفكارهم في تلك المقالات التي كانت تنشر بجريدة الرائد وغيرها.<sup>(54)</sup>

#### – تشجيع الطباعة والصحافة والنشر:

كان قيام خير الدين التونسي بتشجيع الطباعة و الصحافة والنشر من أقوى الأركان الأربعة أثرا في تطور الحياة العلمية والفكرية في تونس، فقد كانت نهضة الوزير خير الدين بها، نهضة قوية وحازمة. فالمطبوعة التونسية كانت عند ولاية خير الدين الوزارة الكبرى قد مضى على تأسيسها خمسة عشر عاما، والجريدة الرسمية وهي جريدة الرائد كانت في سنتها الرابعة عشر. وكان صدور الرائد غير منتظم، وفي عمل المطبعة ضعف وفتور.<sup>(55)</sup>

كما أن الطباعة لم تلعب الدور الفعال منذ تأسيسها في تونس مثل ذلك الذي تم في عهد خير الدين. إذ منذ تأسيسها سنة 1860م كانت الكتب المطبوعة (68) كتاب، غير أنه في فترة خير الدين عرفة انتعاشة ملحوظة بعد أن قام ببعث النشاط فيها وأسند نظرها عامة إلى الشيخ محمد بيزم، ووسع نشاط النشر بها بالإكثار من نشر الكتب الأدبية والتاريخية. فكان من الكتب المطبوعة بها كتب محمد بلخوجة ومحمد قبادوو خير الدين نفسه، بالإضافة إلى عدد كبير من المخطوطات في اللغة والأدب وأهم الكتب المقررة في برنامج الزيتونة مثل شروح الأجرومية وديوان حسان بن ثابت، وربط تونس بمركزي

النشر الهامين في العالم العربي بيروت ومصر فكثرت المراسلات والمبادلات، واتسع باب جلب الكتب المطبوعة في الشرق وترويجها بتونس.<sup>(56)</sup>

وفي سنة 1874م ابتدأت المطبعة تصدر تقويما سنويا، استمر صدوره حوالي ثلاثين سنة بانتظام، اسمه " النزهة الخيرية " و بالإضافة إلى الدور الثقافي قامت المطبعة كذلك بطبع القوانين التنظيمية والقواعد الجديدة في تونس وكذا التنظيمات الدينية الخاصة بالتعليم وبالقياذ وبالعدول.<sup>(57)</sup>

كما أن رغبة خير الدين في معرفة انجازات حكومته داخليا وخارجيا دفعه إلى بعث جريدة " الرياض التونسي"، التي أهملت من جراء الأزمة المالية والسياسية سنة 1860م. حيث أصبحت هذه الجريدة تمثل الصوت الرسمي وقناة تواصل بين الحكومة والشعب بالإضافة إلى دورها التربوي بالنسبة لغالبية الأهالي. إذ بفضل إجراءات إدارية وتقنية ظهرت تلك الجريدة من جديد، وأضحت زهرة تصدر بصفة دورية بفضل جهود محمد بيرم ومحمد السنوسي اللذان ساهما مساهمة فعالة في برنامج خير الدين العلمي الثقافي.<sup>(58)</sup>

وبالإضافة إلى جريدة الرياض، بعث خير الدين النشاط في جريدة الرائد التونسي فقد ذكر محمد بيرم الخامس في صدد الحديث عن وزارة خير الدين عندما تطرق إلى ذكر الرائد وكيف انتظم أمر صدوره « ثم الإفادة فيه بأفكار الوزير في المسائل السياسية بما كان ينشر فيه من المقالات المرشدة، الذي هو ضروري للحكومة في إيقاظها للأهالي والسكان وإرشادهم...».<sup>(59)</sup>

وقد كانت الجريدة تشتمل على قسم رسمي تدرج فيه الأوامر والقوانين والتسميات وقسم غير رسمي تنشر فيه الأخبار الداخلة وأخبار متعلقة بتقدمات العلوم والاكتشافات ومقالات مترجمة عن الصحف الأوروبية تشتمل على تقارير علمية في التاريخ والجغرافيا والاجتماع. وأضاف خير

الدين إلى ذلك نشر مقالات عربية ترتبط بالحالة الراهنة مثل مقال " المدار على الرجال " عندما شاعت أخبار كذبت ببلاغ رسمي عن سحب الملك ثقته في الوزير.<sup>(60)</sup> ونشرت الجريدة بالإضافة إلى ذلك كله على صفحاتها كتب مسلسلّة تعميما للفائدة.<sup>(61)</sup>

ولا شك أن ما كان يقوم به خير الدين لا يختلف عن ما أورده أحمد بن أبي الضياف لما تحدث عن فوائد المطابع وأثر النشر على الحياة السياسية فقال: « وبالمطابع تقدم من تقدم من الأمم حتى صارت في مدن الحضارة كالأمور الضرورية و ربما كانت سببا في إطفاء نار الفتنة، لأن الملوك تنظر بمرآتها إلى مطامع أنظار العامة فتعالج سقيمها بالأدوية النافعة ».<sup>(62)</sup>

وقد استغل خير الدين الصحافة ومن ورائها جريدة الرائد التونسي لأغراض سياسية، يظهر ذلك من خلال مقاله " حماية المحتمتين "<sup>(63)</sup> التي حث فيها على التسامح و التبصير في معالجة وضع الأقليات و خاصة وضع الملل غير الإسلامية، وذلك بهدف سياسي لكسب ود الدولة الغربية أو على الأقل ملازمتها الحياد في الحرب الروسية التركية.<sup>(64)</sup>

ونشير هنا أيضا إلى التواصل الذي حدث في تلك الفترة بين المسيحيين والأدباء التونسيين، حيث أقام أحمد فارس الشدياق فترة بتونس وارتبط بعلاقات سياسية وثقافية مع النخبة التونسية وطبع بعض كتبه بتونس فأثر في المناخ الثقافي بتوجهاته، وقد استفاد الوسط الزيتوني من هؤلاء المهاجرين فائدة جمة.<sup>(65)</sup>

ووفرت الصحافة المجال المناسب لعملية التحديث اللغوي من حيث المصطلح ومن حيث الأسلوب، وخصوصا بعدما قدم سنة 1876م شاب تونسي من نبغاء الزيتونيين المتخرجين على الشيخ قبادو وتلميذه بوحاجب وبيرم، وهو الشيخ محمد السنوسي لتحرير الرائد، والذي أضفى مسحة

خاصة على المقالات المنشورة بضبطه ودعمها بآيات وأحاديث وكلام الحكماء والبلغاء شعرا ونثرا،<sup>(66)</sup> زيادة على مقالاته ورحلاته خاصة " الرحلة الحجازية " و" الرحلة الباريسية "، اللتان تحدث فيهما عن تطور العلوم في فرنسا وأوروبا، واللتان حددتا موقفه ونظرتيه للحضارة الغربية.<sup>(67)</sup>

ولقد كانت مصالح البريد الأجنبي تترجم بالعربية بقرائنها الموجهة إلى تونس، كما كان اليهود وبعض الأجانب من الإيطاليين واليونان يحسنون العربية ويكتبون بها. وكان قناصل الدول العظمى مثل بريطانيا وفرنسا يراعى في اعتمادهم بالحاضرة معرفة العربية والإسلام، ومن أشهرهم (ليون روش) قنصل فرنسا و(ريتشارد وود) قنصل بريطانيا.<sup>(68)</sup> تلك هي المؤسسات الأربعة التي وجهت التفكير التونسي توجيها جديدا ينطلق من نظرة متفتحة على الآخر. ونالت تأييد الرأي العام التونسي وثقته.

و ما يمكن التأكيد عليه هنا هو أن التيار الإصلاحي التونسي هو تيار أصيل ظهر مع المشير أحمد باي في أواخر الثلث الأول للقرن التاسع عشر ميلادي وتدعم وتكرس من طرف خير الدين الذي سعى بكل جدية إلى تنفيذ منهجه المضبوط في كتابه " أقوم المسالك...".

كما يمكن القول أن أصول الحركة الإصلاحية التونسية كانت تستمد روحها من القوانين الاجتماعية التي استنبطها ابن خلدون رائد علم الاجتماع البشري وفلسفة التاريخ. إذ كان الإصلاح عند خير الدين إصلاحا ينطلق من المفهوم الخلدوني الواسع لعلم العمران البشري الذي يبحث في شؤون البشر من حيث الملك أي " الدولة "، والكسب أي " الاقتصاد " والصنائع والعلوم، ومختلف الآداب والفنون. و من جهة أخرى متأثرا بالحضارة الغربية والتي وجد فيها خير الدين المثال الأحسن، فاستعان بوسائل وعناصر تقدمها في تحقيق كل ما قام به في تونس من إصلاحات، وبما ساهم فيه من إثراء للفكر

العربي الإسلامي عموماً، بمختلف المفاهيم والقيم الحديثة. فهل اقتصر الإصلاح في البلاد المغاربية على تونس وحدها؟.

### الإحالات:

- (1) اعتمدنا على نص رحلة الطهطاوي "تخليص الإبريز في تخليص باريز": المنشور كملحق في كتاب محمود فحفي حجازي: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، ط1، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1974م، ، ص 208.
- (2) محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأنصار والأقطار، ج1، تحقيق: مأمون بن معي الدين الجنان ، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان 1997م ، ، ص 23.
- (3) محمد السعيد بن علي الشريف: «الرحلة الخيرية فيما عاينه ناظمها ببر فرانس»، جريدة المبعثر، العدد رقم 154، المجلد (1852-1855م)، بتاريخ 2 جمادى الأولى 1270هـ/ 01 جانفي 1854 م، ص 04.
- (4) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص ص 10، 22، 23.
- (5) محمد الحجوي، الرحلة الأوروبية، مخطوطة في قسم الوثائق والمخطوطات في الخزانة العامة بالرباط-تحتل رقم 115، قام سعيد بن سعيد العلوي بتحقيقها والتقديم لها، ثم نشرها كملحق في مؤلفه: أوروبا في مرآة الرحلة، ، ص ص 132-133.
- (6) سليمان بن صيام: الرحلة الصيامية، تحقيق وتقديم: خالد زيادة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، لبنان 1979م، ص 42.
- (7) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، ط1، تحقيق: علي الشنوفي، ج2، الرائد التونسية للتوزيع، تونس، 1976م، ص 151.
- (8) السنوسي، الاستطلاعات الباريسية في معرض سنة 1889م، تونس، 1892م، ص 93.
- (9) السنوسي، الرحلة الحجازية...، مصدر سابق، ج1، ص 113-114.
- (10) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
- (11) السنوسي، الرحلة الحجازية...، مصدر سابق، ج1، ص ص 113-114.
- (12) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ج 1، تحقيق: المنصف الشنوفي، الطبعة الثانية، منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، تونس 2000م ، ص 184.

- (13) المصدر نفسه، ص 180.
- (14) المصدر نفسه، ص ص 181، 182.
- (15) نفسه، ص 198.
- (16) نفسه، الصفحة ذاتها.
- (17) المصدر نفسه، ص 199.
- (18) عماد الصلح: أحمد فارس الشدياق-آثاره وعصره، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر ، ط2، لبنان 1987م ، ص 177.
- (19) الطهطاوي، مصدر سابق، ص ص 258، 259.
- (20) أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 8 أبواب، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ط2، الدار العربية للكتاب، الباب السادس، تونس 2004، ص ص 102-103.
- (21) يريم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص 138.
- (22) ادريس بن محمد الجعايدي: تحفة الأخبار بغرائب الأخبار ، مخطوطة في الخزانة الصبحية في مدينة سلا، أعدها الأستاذ عز المغرب معينو موضوعا لدراسة جامعية في جامعة محمد الخامس.(غير منشورة) ، ص208.
- (23) يريم الخامس، مصدر سابق، ج2 ، ص 137.
- (24) السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 53.
- (25) المصدر نفسه، ص 54.
- (26) التونسي، مصدر سابق، ج2، ص 583.
- (27) المصدر نفسه، ج1، ص 399.
- (28) السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 192.
- (29) المصدر نفسه، ص 122.
- (30) أحمد أمين، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، موسوعة أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت 1979م، ص 148.
- (31) المرجع نفسه، ص 149.

- (32) محمد العزيز بن عاشور: «التعليم الزيتوني من ترتيب المشير أحمد باي إلى تأسيس مشيخة الجامع الأعظم وفروعه 1842-1932م»، المجلة التاريخية المغربية، عددان 41-42، جوان 1986، ص 05.
- (33) أمين، المرجع السابق، ص 08.
- (34) المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.
- (35) نفسه، ص ص 9 - 12.
- (36) يقول خير الدين أن تقدم أوروبا في ميدان التمدن الذي من نتائجه الاختراعات المشار إليها، إنما كان بتمهيد طرق العلوم والفنون. أنظر: التونسي: مصدر سابق، ج 1، ص 181.
- (37) يرم الخامس، مصدر سابق، ص 270.
- (38) Ahmed Abdessellem: Les Historiens Tunisiens des 17, 18, 19 siècles. Essai C.Klicksieck, Paris 1973, P 131. d'histoire culturelle, libraire
- (39) حفناوي عمایرية: «دراسة في وضع اللغة العربية وتطورها بتونس في القرن 19م»، مجلة الحياة الثقافية، عدد رقم 56، السنة 1990م، ص 33.
- (40) محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، مطبعة دار الهناء، تونس 1956م، ص 12.
- (41) المصدر نفسه، ص 25.
- (42) علي الزيدي: «بين الصادقية والزيتونية»، المجلة التاريخية المغربية، العددان 61-62، جويلية 1991م، منشورات سيرميدي، تونس، ص 119.
- (43) عبد العزيز الثعالبي: تونس الشهيدة، ترجمة وتقديم: سامي الجندي، ط 1، دار القدس، لبنان 1975م، ص ص 55-57.
- (44) يرم الخامس، مصدر سابق، ص 269.
- (45) Nourddine Sraieb: «Au x Origine du Destour ou une Continuité Exempleire» Revue d'Histoire Maghrébine, N° 65-66, Août 1992, Publication Sermadi, La Tunisie, P 72.
- (46) زهير الزواوي: الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية، ط 1، دار الطليعة للنشر، تونس 2005م، ص 159.



- (47) نور الدين سريب: «خير الدين و التعليم»، مجلة الحياة الثقافية، عدد رقم 60 ، السنة 1991، منشورات وزارة الثقافة، تونس، ص ص 115 ، 116.
- (48) الزوادي، مرجع سابق، ص ص 156-157.
- (49) حمادي الساحلي، فصول في التاريخ والحضارة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992م، ص 83.
- (50) سريب، « خير الدين و التعليم »، مرجع سابق، ص 116.
- (51) ابن عاشور، مرجع سابق، ص 25.
- (52) يريم الخامس، مصدر سابق، ص 270.
- (53) Abdesslem : op.cit P133.
- (54) ابن عاشور، مرجع سابق، ص 26.
- (55) المرجع نفسه، ص 26 .
- (56) حفناوي عمايرية، « دراسة في وضع اللغة العربية....»، مرجع سابق، ص 33.
- (57) ابن عاشور، مرجع سابق، ص ص 20-27.
- (58) Mongi Smida : Khéreddine Ministre Réformateur 1873-1877 , Maison Tunisienne de L'édition , la Tunis 1970, p, 348.
- (59) يريم الخامس، مصدر سابق، ص 275.
- (60) ابن عاشور، مرجع سابق ، ص 27.
- (61) عمايرية، مرجع سابق ، ص 33.
- (62) ابن أبي الضياف، مصدر سابق ، ج 5 ، ص ص 31 ، 32.
- (63) هو مقال لخير الدين التونسي ورد كافتتاحية للرائد التونسي العدد رقم 20 بتاريخ 30 ماي 1877 ، قام الأستاذ حفناوي عمايرية بنشره تحت عنوان من نصوص خير الدين المجهولة ، مجلة الحياة الثقافية ، العدد 60، السنة 1991.
- (64) المرجع نفسه، ص ص 80 – 82.
- (65) عمايرية، « دراسة في وضع اللغة العربية »، مرجع سابق ، ص 34.
- (66) ابن عاشور، مرجع سابق ، ص 28.
- (67) Smida : op.cit , P 344.
- (68) عمايرية، « دراسة في وضع اللغة العربية....»، مرجع سابق ، ص 36.